مبررات ظهور علم اجتماع الشباب

يعد ميدان علم اجتماع الشباب أحد الميادين المعرفية لعلم اجتماع يهتم بشكل أساسي بالشباب.
والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا ظهر ميدان معرفي خاص للشباب؟ وما هي مبررات ظهوره؟
الإجابة عن الشق الأول من السؤال تأتي من خلال الاطلاع على التقارير الدولية التي تتحدث وباهتمام عن زيادة عدد الشباب في العالم ممن تتراوح أعمارهم بين 14 و 25 عاماً, حيث يشكلون بحسب إحصاءات اليونسكو مليار ومئتي مليون, أي ما يعادل 18 في المئة من سكان العالم الذين يصلون إلى 6 بلايين نسمة, بينهم حوالي 84 في المئة من بلدان العالم الثالث, وهذه النسبة سترتفع عام 2025م إلى 89 في المئة. وهذا التعداد يمثل أكبر جيل من الشبان في تاريخ البشرية.
وبينما تتناقص أعداد الشباب في البلدان ذات الدخل المرتفع أي ما يعرف بالدول المتقدمة, تتزايد أعداد هؤلاء بصورة كبيرة في الدول النامية حيث يمثل الشباب و الأطفال ما يزيد عن 50 في المئة من عدد السكان, وهذه النسبة تشمل معظم الدول العربية, والكثير من الدول الإسلامية.
وتعتبر هذه الظاهرة من مداخل تشكيل الرؤية إلى العالم, وتكوين المعرفة بالمجتمع الإنساني, كما أنها تكشف عن طبيعة التحول الديموغرافي في التركيبة السكانية للعالم, وملامح هذه التركيبة وعناصرها وتوازناتها المتغيرة والجديدة, و التي يتحدد على أساسها اتجاهات التنمية الإنسانية, وبرامج التخطيط, ونظم الإدارة, واستشرافات المستقبل. لذلك أقرت اليونسكو عام 1996م أن الشباب يمثلون أولوية مطلقة في برامجها الثقافية, وفي عام 1998م شكلت اليونسكو لجنة استشارية لرعاية الشباب. وقد بدأت هذه الظاهرة تلفت أنظار العالم, وتحرض على الاهتمام بها, و التأمل فيها, و النظر في متطلباتها واحتياجاتها الأساسية. و خضعت إلى العديد من الدراسات والأبحاث الوصفية والمسحية والتحليلية والإستشرافية التي استعانت بعلماء وخبراء في مختلف ميادين العلوم الإنسانية و الاجتماعية. و مازالت هذه الظاهرة تستوقف الانتباه بصورة كبيرة لشدّة حساسيتها, و تشابك تفاعلاتها الاجتماعية والاقتصادية و السياسية, وصعوبة السيطرة عليها, وضبطها و إدارتها بطريقة هادئة ورشيدة.
ويمكن أن تتعدد وتختلف اتجاهات الرأي ومنهجيات وطرائق التعامل مع هذه الظاهرة, لكنها بالتأكيد بحاجة إلى درجة عالية من الاهتمام و الاختصاص و الدراسة العلمية المنظمة و المستدامة, الأمر الذي يتطلب ضرورة أن يتخصص لهذه الظاهرة حقل معرفي له خبرته ومنهجيته وطرائقه في البحث و التحليل و التوصيف. ويكون هذا الحقل من أقسام علم الاجتماع, باعتبار أن ظاهرة الشباب من الظواهر الاجتماعية التي تنتمي إلى مجالات اهتمام علم الاجتماع. وهذا الحقل المعرفي الجديد أطلق عليه علم اجتماع الشباب.

أمّا الإجابة أن الشق الثاني من السؤال والمتعلقة بما هي الموجبات والمقتضيات الأساسية التي تفرض وتؤكد الحاجة لتأسيس هذا الحقل المعرفي (علم اجتماع الشباب)؟
فتتحدد من خلال تحديد هذه الموجبات والمقتضيات التي تتفرع في اتجاهين رئيسيين:

الأول ويرتبط بطبيعة الظاهرة ومكوناتها.

الثاني ويرتبط بطبيعة العلم وتطوره وطرائقه.

وفيما يتعلق **بطبيعة الظاهرة من حيث المكونات والخصائص**, فهي من جهة لها مكونات كمية يضيف لهذه الظاهرة ثقلا ووزناً واعتباراً يستدعي المتابعة والملاحقة والرصد والمسح والتوصيف الكمي. ومن جهة أخرى لها مكونات نوعية فالشباب هم الرأسمال الحقيقي والاحتياط الإستراتيجي في كل بلد كما وصفهم تقرير المجلس الاقتصادي و الاجتماعي للأمم المتحدة الصادر سنة 2000م, وبالإمكان أن يكونوا قوة إيجابية منتجة وفاعلة ومؤثرة, قوة دينامية حية في كل مجتمع, طليعة التغيير فيه, وشركاء أساسيين في بنائه و تقدمه ونهوضه, إذا ما تم التقرب إليهم وسماع أصواتهم, وتوفير المناخات الحرة للتحاور معهم, كما تحدث عنهم تقرير اليونسكو سنة1996م. فهذه الشريحة من الناس قد تتحول إلى مصدر قوة وتقدم وبناء, وقد تتحول إلى

مصدر ضعف وتراجع وهدم, بحسب ما تتعرض له من مؤثرات نفسية وفكرية, ونوعية المناخات والأجواء التي تتفاعل معها. كما أن هذه الشريحة كفئة عمرية تعتبر في الدراسات النفسية والاجتماعية و التربوية والفسيولوجية أهم و أخطر مرحلة عمرية, وهي التي وصفها القرآن الكريم بمرحلة القوة بين ضعفين, ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة, قال تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) ـ الروم:54 ـ والشباب في هذه المرحلة يتعرضون إلى تغيرات نفسية وذهنية و فيزيولوجية قد تدفع بعضهم نحو الفاعلية والطموح و النجاح, وقد تدفع البعض الآخر نحو الجمود و الإحساس بالعجز والفشل, لذلك فهي مرحلة بحاجة إلى عناية وتوجيه وترشيد.

وأما ما يرتبط بطبيعة العلم وتطوره و طرائقه, فإن علم الاجتماع كغيره من العلوم الإنسانية والاجتماعية كان يستجيب لبعض الضرورات والموجبات المعرفية و المنهجية التي كانت تقتضي تكوين فروع علمية متخصصة لدراسة بعض الظواهر الاجتماعية الكبرى و أنماط التجمعات الإنسانية التي تشترك وتتحد في معايير السلوك الاجتماعي. لذلك فقد تفرغ علم الاجتماع إلى فروع متعددة, منها علم الاجتماع السياسي, وعلم الاجتماع الصناعي, وعلم الاجتماع العسكري, وعلم اجتماع القرية والمدينة إلى جانب فروع أخرى. ومن مقتضيات هذا التشعب والانقسام في علم الاجتماع, هو أن المجتمع الإنساني في حالة من الاتساع و التزايد الكمي والعددي, ودخلت عليه تعقيدات شديدة, ويتعرض باستمرار إلى تغيرات متلاحقة تؤثر على أنماطه السلوكية, واتجاهاته العامة, وعلى نظمه ومؤسسات وتشكيلاته الاجتماعية. الوضع الذي يقتضي أن يكون هذا العلم في مستوى مواكبة ذلك التزايد و الاتساع الكمي و العددي, وتلك التعقيدات الشديدة والتغيرات المتلاحقة, إلى جانب ما يشهده هذا العلم وغيره من العلوم الأخرى من تراكمات معرفية كبيرة وسريعة, ومن تطورات بنيوية ومنهجية مع ما عرف بثورة المنهجيات في العلوم الاجتماعية. الأمر الذي يستدعي وباستمرار إعادة تنظيم مكونات وعناصر هذا العلم, وتجديد هندسته البنيوية والمنهجية لكي يحتفظ بقدرته على التجدد واستيعاب هذه التراكمات والتطورات المعرفية والمنهجية. بالإضافة إلى أن حركة العلوم بصورة عامة كانت تتجه نحو التخصص الدقيق, وتركيز الخبرة والمعرفة في مجالات محددة ومركزة.

هذه العوامل وغيرها ساعدت علم الاجتماع لأن يتحول إلى فروع متعددة, ويتشعب إلى أقسام مختلفة. وهي الضرورات و المقتضيات التي تستدعي الحاجة الفعلية لتكوين حقل يتخصص في علم اجتماع الشباب, وهي الشريحة التي تشترك في معايير متحدة من حيث السلوك الإنساني, مهما تنوعت واختلفت انتماءات هذه الشريحة عرقياً وقومياً, لسانياً ولغوياً, دينياً ومذهبياً, كما أنها الشريحة التي بحاجة إلى دراسات منظمة حولها خصوصاً في هذا العصر الذي يتعرض فيه جيل الشباب إلى مؤثرات واسعة وكبيرة ومنظمة عن طريق وسائل الإعلام وشبكات الاتصال وتكنولوجيا المعلومات التي تطورت بصورة مذهلة للغاية, وباتت شديدة التأثير, والشباب هم الأكثر عرضة لهذه المؤثرات.

وتتضاعف الحاجة إلى هذا الحقل المعرفي الجديد في النطاق العربي باعتبار أن المجتمعات العربية بدأت تتشكل من جديد, وسوف تدخل دورة اجتماعية جديدة مع هذا العدد الكبير من الشباب الذي ينبغي أن يتحول إلى مصدر قوة وتجدد وبناء.

نتساءل ما الشباب ؟ أو من هو الشباب ؟ أهو مجرد كلمة كما ذهب إلى ذلك بيير بورديو؟ أم أنه يؤشر على فئة عمريه اجتماعية لها من الخصائص ما يجعلها متميزة عن باقي فئات المجتمع ،محققة جانبا من الاختلاف نوعا ودرجة؟

لقد انتهى بعض السوسيولوجيين في بداية السبعينيات إلى تحديد عمري للشباب يتراوح مابين 15و25سنة، وهذا التحديد الذي تم تبنيه كإطار فردي للسنة الدولية للشباب لسنة 1975. وهنا و الآن تقوم اللجنة الوطنية المسؤولة عن تنظيم مهرجانات منتدى الشباب المغربي للألفية الثالثة بالانضباط لنفس التحديد، وكأن من يخرج عن هذه المسافة العمرية ليس شابا ؟

إن التعامل مع الظاهرة الشبابية من الوجهة العمرية ينطوي على كثير من اللبس و الاختزال بل

انه يؤدي إلى إقصاء فئات عريضة من الشباب ،وهذا ما يجعل توصيف الشباب عملية محفوفة بالمزالق العلمية و لهذا نتساءل مرة أخرى ما هو الشباب أو من هم الشباب ؟
فإلى جانب المقاربة العمرية هناك المقاربة البيولوجية النفسية التي تتوكأ في تحديدها الواقعي للشباب على تلك الملامح والتطورات الفيزيولوجية التي تبصم لحظة الانتقال من الطفولة إلى الشباب ومنه أيضا إلى النضج أو الشيخوخة.ومن جهة أخرى يحاول التحليل السوسيولوجي تقديم تعريف محدد لكلمة الشباب والتي تظل مجرد كلمة على حد قول بيير بورديو،
وذلك اعتبارا للصعوبات التي تطرحها مسألة التعريف ذاتها، **ولعل هذا ما جعل بورديو يعتبر الحدود بين الأعمار أو الشرائح العمرية حدودا اعتباطية ، فنحن لا نعرف أين ينتهي الشباب لتبدأ الشيخوخة مثلما لا يمكننا أن نقدر أين ينتهي الفقر ليبدأ الثراء، وهذا يعني أن الفئات العمرية هي بالضرورة نتاجات اجتماعية تتطور عبر التاريخ وتتخذ أشكالا ومفاهيم ارتباطا بالأوضاع والحالات الاجتماعية**.
تماما كما أن لكل مجتمع قيمه وعقله الجمعي الذي ينضبط إليه ويحتكم إليه فإن له مفهوما خاصا للشباب وتحديدا اجتماعيا لخصائصه وتحولاته، بل إننا نجد داخل المجتمع الواحد أكثر من مفهوم للشباب وذلك كله في اتصال وثيق مع ما يعتمل داخل هذا المجتمع ويتفاعل فيه ،والنتيجة في النهاية شباب لكل مجتمع مختلف نوعا ودرجة عن شباب أي مجتمع ،ومنه نصل إلى التأكيد على أن لكل شباب قضاياه وأسئلته التي تتنوع بتنوع المجتمعات، **وهذا ما انتهت إليه مارغرت ميد في دراستها لقبائل ساموا مؤكدة على أزمة المراهقة والشباب التي تلوح بقوة في المجتمع الرأسمالي تكاد لا تبين في هذه القبائل، نظرا لبساطة هذا المجتمع وسهولة المرور إلى سن الشباب**.
فالشباب في ساموا * ليس هو الشباب في أمريكا و ليس هو الشباب في العالم العربي .
وهذا يعطي للمقاربة السوسيولوجية لمفهوم الشباب وجاهه نسبية مقارنة مع المقاربة العمرية السيكولوجية التي تشتغل تحديدا على المراهقة واضطراباتها النفسية، ليبقى الشباب مجرد كلمة أو نتاج اجتماعي تتحدد أو يتحدد بشروط مجتمعية معينة. ولعل هذه الصعوبة المفاهيمية التي تطبع مفهوم الشباب هي التي جعلت محمد شقر ون يتخلى عن مفهوم الشباب لصالح مفهوم أكثر إجرائية من الناحية العلمية ألا وهو مفهوم المرور إلى سن الرشد.
وأملا في استجماع خلاصات هذه المقاربات المفاهيمية للشباب يمكن القول بأن الشباب يبقى مجرد ظاهرة اجتماعية محددة سلفا بشروط إنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي في مجتمع معين، واعتبارا لكونها ظاهرة أو معطى اجتماعيا فهي تشير إلى مرحلة عمريه تأتي بعد مرحلة الطفولة ،وتلوح خلالها علامات النضج البيولوجي والنفسي والاجتماعي. .
وجدير بالذكر بأن كل تعريف اجتماعي للشباب يظل مرتبطاً بشروط إنتاجه الاجتماعية، فكل عقل جمعي ينتج شبابه ويحدد احتمالات الارتقاء الاجتماعي إلى هذه الفئة أو السقوط منها، بحيث يبقى لدرجة التعقيد المجتمعي دور حاسم في تحديد الارتقاء أو السقوط
أبرز العناصر التي يتجلى فيها التحوّل والتي تؤثّر في البنية الثقافية ومعاييرها لدى الشباب على النحو التالي:
- يعيش شاب اليوم في عالم مفتوح، فهو لا يوجد فقط في بلده بل إنه متّصل بالعالم على امتداده وبالتالي فهو عرضة للتأثيرات المختلفة وبخاصة تلك التي تحملها الفضائيات والانترنت.
- تنوّع مصادر المعرفة والإعلام والتثقيف وبالتالي لم تعد العائلة والمدرسة تحتكران هذه الوظائف ومن ثمّة تضاءل دورهما في الضبط الاجتماعي.
- تزايد تأثير منظومة الحقوق الأساسية للإنسان، وانتشار ثقافتها، فأصبحنا اليوم نتحدّث عن مجلة حقوق الطفل والشباب، وأحدثت المكاسب في مجال حقوق المرأة وحضورها في المجتمع تطورا في العقليات والعلاقات.
- تطوّر أساليب التعليم من أساليب التلقين إلى أساليب أقل ضبطا وتوجيها وبالتالي حصل تحوّل

في صورة المعلم ووظيفته وتأثيره.
ـ التحوّل الذي تشهده المؤسسات الاجتماعية الأساسية وبخاصة العائلة، التي تحوّلت من ممتدة إلى نوويّة. وما انجرّ عن ضغوطات الحياة العصرية من تأثيرات جديدة.
ـ التحوّل في مجال العمران والتحضر وظهور أنماط جديدة في تنظيم الفضاء السكني وبخاصة البناء العمودي والجماعي الذي أنتج علاقات تتّجه نحو الفردانيّة.
ـ تنوع الاختيارات والمرجعيات في حياة الشباب، واتساع نفوذ وسائط الإشهار وصناعة الرغبات التي أنتجت سلطة جديدة توجه عقليات الشباب وتطرح بدائل ومثل وقدوات جديدة.
كيف يجب لشباب اليوم أن يكونوا؟

شباب اليوم يجب أن يكونوا:

- واعين بواقع بلاده وبإمكانياتها
- مواكبين لمسيرتها
- عارفين بمكاسبها وانجازاتها
- متابعين لما يجري في العالم من أحداث وتطورات
- أمينيت وصادقين وبعيدين عن نقل الشائعات
- متفتّحين
- نافذي البصيرة
- ثاقبي الرأي

دمتم بخير وبحفظ الرحمن